تلقي النبي ﷺ القرآن عن جبريل عليه السلام بين المعجزة والقدوة

د.عبد الحليم بن محمد الهادي قابة

أستاذ محاضر بكلية العلوم الإسلامية والعلوم الاجتماعية

-جامعة باتنة-

مقدمة:

من كليات ديننا التي اجتمعت عليها كلمة الأمة أن السنة النبوية ـ قولاً وعملاً وتقريراً ـ هي المصدر الأهم ـ بعد القرآن الكريم ـ للتأسّي والهداية، لا يختلف على ذلك اثنان، ولا يتناطح فيه عنزان.

كما أن من المسلَّمات أن للأعمال مراتب متفاوتة، وأن بعضها أهم من بعض، وبعضها أخطر من بعض، ولازم ذلك فيما نحن فيه، أن الاقتداء تعظم أهميته وتصغر حسب أهمية الأمر المقتدى فيه والعمل الذي تحصل الأسوة فيه

وموضوع التلقي من الله تعالى بواسطة المَلَك، والصلة بين عالم الملائكة وعالم البشر، وصلة ذلك بقضية التوثق من ثبوت النص القرآني ومصدره الإلهي، وضمان وصوله إلينا دون أيّ تبديل أو تحريف، كل ذلك من الأهمية بالمكان الأعلى، وهو من المعارف المحتاج إليها أشد الاحتياج.

يتجلى ذلك مما يلي:

أولاً: سؤال الصحابة رضي الله عنهم عن بعض ذلك وإقرار النبي ﷺ لهم على ذلك، بل وبيانه الشافي للموضوع في مناسبات متكررة. من ذلك:

ـ حديث عائشة(1) رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ فأجابه ﷺ بقوله: "أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدُّه عليَّ، فيفصم عنّي وقد وعيت عنه ماقال. وأحياناً يتمثل لي الملَك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول "(2).

ـ والسؤال كما هو ظاهر، وكما يدلّ عليه الجواب، ينصرف ابتداء إلى صفة الوحي وطريقة التلقي النبوي لكلام الله من أمين الوحي جبريل عليه السلام. واحتمالُ حمله على ناقل الوحي ـ كما احتمله ابن حجر(3) ـ واردٌ، ولكنه بعيد. والله أعلم.

ثم إن جواب رسول الله ﷺ للسائل مباشرة ببيان ما سأل عنه، ودون نكير يدل على أن هذا من العلم الذي تحسن معرفته، ومن البيان الذي ينبغي تبليغه.

ثانياً: نزول آيات بيّنات تفصل بعض ما يتعلق بتلقي جبريل عليه السلام عن الله عز وجل وتلقي النبي ﷺ من جبريل عليه السلام، وتذكر بعض المؤهلات الربانية لأمين الوحي ليتسنى له صلى الله عليه وسلم تحمل هذه الرسالة وأداؤها كما يحب ربنا ويرضى، وكفى بتعرّض القرآن لموضوع بالبيان دليلاً على أهميته ومشروعية العناية به.

من ذلك قوله تعالى: **﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ**

الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾(النجم 1-18)

وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ (4).

ثالثاً: لا يخفى أن هذا الموضوع وثيق الصلة بعقيدتنا القطعية المتعلقة بالحفظ الرباني الكامل للقرآن الكريم، والمعارف التفصيلة المتعلقة بذلك، مما يزيد يقين المسلم ليطمئن قلبه ويثبت إيمانه، ثم إن فيه تحصيناً ضرورياً للمسلم المعاصر ـ خاصة ـ لكثرة حملات المستشرقين والجهلة من المنسوبين إلى الإسلام، على النص القرآني وسلامته من أدنى تحريف أو تغيير.

رابعاً: الموضوع له أهمية تربوية بالغة لكون رسول الله ﷺ قدوة المسلمين وإمام المربين. فدراسة كيفية التلقي البشري للكلام الرباني، وتمييز ما هو من الخصوصيات عما ليس كذلك، واستثناؤه من قاعدة الاقتداء، يعتبر عملاً ضرورياً جداً ليحصل حسن الاهتداء بسلامة الاقتداء.

خامساً: لا تخفى ـ أيضاً ـ أهمية دراسة هذا الموضوع للمتخصصين في الدراسات القرآنية بفروعها خاصة ما يتعلق منها بالقراءات القرآنية، وذلك لابتناء كثير من مباحث هذه الدراسات على البت في كثير من تفصيلاته.

سادساً: عدم وجود دراسات اهتمت بالموضوع بشكل مفصّل(5) ـ فيما أعلم ـ وخلو المكتبة الإسلامية من بحوث متخصصة فيه. مما يجعلني أعتبر هذه المحاولة دلالة

على خير، وتنبيها لأهل الاختصاص لشحذ هممهم وبري أقلامهم. والله الموفق.

هذا؛ وإن طبيعة الموضوع وإيحاء العنوان، ثم ندرة مراجع الموضوع، كل ذلك كان له أثره الواضح في تقسيم البحث إلى هذا التقديم وما حوى من بيان الأهمية والتأصيل، ثم إلى ثلاثة مباحث:

أولها: عن إعداد النبي ﷺ لتلقي الوحي.

ثانيها: عن نصوص التلقي وبعض فوائدها بإجمال.

ثالثها: عن كيفية التلقي والقراءة بشكل خاص.

وفي كل ذلك حاولت البحث عن مواطن الاقتداء وكيفياته، مع التنويه ابتداء بأن فكرة البحث راودتني أثناء إعدادي رسالة الماجستير عن القراءات القرآنية. ولم أجد من عرض لها كما أريد إلا الأستاذ عبد السلام مقبل المجيدي ـ المشار إليه في الهامش ـ في كتابه " تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم " الذي أجاد فيه وأفاد. وفصل القول في موضوع التلقي المعجزة؛ بشكل غير مسبوق ـ فيما أعلم ـ فكان عمدة بحثي وقدوته، والدالّ على دروبه ومسالكه، والملهم لكثير من أفكاره ونتائجه، فجزاه الله خيراً على سبقه إلى البحث بإسهاب في موضوع من الأهمية بمكان قلَّ مَن أعطاه حقه من البيان، وعلى أن كان سبباً في تنبهي إلى ما وفقت له في هذه الصفحات من التمييز بين مواطن الاقتداء وغيرها مما لا يطلب فيها الائتساء مما أَعُدُّه تتمةً مفيدة ـ إن شاء الله ـ لبحثه المتميّز، وأساساً لدراسة مقترحة تستوعب السنة النبوية في جميع مجالاتها لضبط كيفية الاهتداء بحسن التوجيه إلى ما ينبغي فيه الاقتداء، وتمييزه عما قد يشمله الاستثناء، والله ولي التوفيق والهدى.

المبحث الأول: إعداد النبي ﷺ وتهيئته للوحي

من المعلوم أن من أهم أنواع الوحي إرسالَ ملَك يوصل الرسالة إلى الرسول البشر؛ وقد استقر في يقين كل مسلم أن الملائكة خلقت من نور، وأننا نحن البشر خلقنا من طين، وأن الملائكة مزودة بخصائص وصفات تختلف عما زوَّدنا الله به وصورنا عليه. مما يجعل عملية اتصالنا بعالم الملائكة مما لا يطاق عادة ولا قبل لنا به؛ لذلك اقتضت حكمة الباري أن يهيِّئ رسوله الكريم ﷺ لتحمل ثقل الوحي وللصبر على التلقي عن الملَك بأمور، منها:

1 ـ **حادثة شق الصدر**: التي حصلت مرتين كما صرّحت به النصوص، ونص عليه غير واحد من أهل العلم(6):

ـ مرة لنزع حظ الشيطان من رسول الله ﷺ، كما نص على ذلك أنس(7) رضي الله عنه في حديث مسلم: "أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق قلبه، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَهُ، وأعاده في مكانه... " الحديث(8).

ـ ومرة ليلة الإسراء والمعراج لملء قلبه حكمة وإيماناً، كما نص على ذلك حديث البخاري: قال النبي ﷺ قال: "**بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان، ـ وذكر رجُلاً بين الرّجلين ـ فأُتيتُ بطست من ذهب مُلئ حكمةً وإيماناً، فشق من النحر إلى مراقِّ البطن، ثم غسل البطن بماء زمزم، ثم ملئ حكمة وإيماناً، وأُتيتُ بدابة دون البغل وفوق الحمار يقال له البُراق، فانطلقتُ مع جبريل عليه السلام حتى أتينا السماء الدنيا**" .. الحديث(11) .

وكلا الحدثتين تهيئة واضحة للقاء المَلَك، واستيعاب كلام الله والخلاص من وساوس الشيطان وللقدرة على رؤية الآيات الكبرى ومشاهد من عالم الغيب، ونحو ذلك مما قرّره النووي وابن حجر وغيرُهما.

2 ـ الرؤيا الصادقة: كما قالت عائشة في حديث بدء الوحي عند البخاري وغيره: ""أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم. فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح... "(12). وهذه التهيئة لم يختص بها رسول الله ﷺ، بل شاركه فيها إخوانه من الأنبياء السابقين، دل على ذلك حديث علقمة بن قيس(13): ""إن أول ما بُدئ به الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم، ثم ينزل الوحي في اليقظة "(14).

3 ـ الآيات التي كانت تحدث له ﷺ: من ذلك:

1 ـ رؤيته أو سماعه لأشياء من عالم الغيب بالنسبة لغيره. كما قال لخديجة:(15) "يا خديجة إني أرى ضوءاً، وأسمع صوتاً... "(16).

2 ـ تسليم الحجر عليه، كما في حديث جابر بن سَمُرة(17) رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ""إني لأعرِف حجراً بمكّةَ، كان يُسلِّمُ عليّ قبل أن أُبعَث. إني لأعرِفُه الآن "(18).

3 ـ كلام بحيرى الراهب.(19)

4 ـ ما حصل له عند بناء الكعبة عندما همّ بجعل إزاره على عاتقه، فسقط مغشياً عليه، كما في البخاري.(20)

4 ـ **الخلوة والتعبد**: كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: ""ثم حُبِّب إليه

الخلاء، فكان يتحنَّث في غار حراء... "[21]، الذي كان يتحنَّث فيه جدُّه عبد المطلب قبله.

5 ـ إلزامُه S ببعض الآداب التي يؤدي الإخلال بها إلى اختلال التلقّي أو تأخره:

من ذلك:

ـ اجتناب أكل الثوم ونحوه؛ لأنه مما يتأذى منه الملائكة، وصرح للأمة بالعلة لكي لا تعتقد التحريم.[22]

ـ اجتناب التماثيل والكلاب، لأن الملائكة لا تدخل بيتاً هي فيه. كما علّمه جبريل عليه السلام ذلك بعد امتناعه من الدخول، كما في صحيح البخاري.[23]

ونسجل هنا الملاحظات التالية:

1 ـ إن حادثتي شق الصدر وما حصل فيهما خصوصية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا مجال للاقتداء به فيها، ولا بد أن فيها حِكماً وأسراراً ليس عندنا فيها من الله تعالى بيان، فالواحب أن نمسك عن الخوض فيها بالقلمَ أو باللسانَ.

2 ـ إن الرؤيا أمر لا يملكه الإنسان، ولا مجال للاقتداء فيه أيضاً، إلا أن عدَّها الجزء الباقي من ست وأربعين جزءاً من النبوة إلى يوم القيامة، يستفيد منه المربِّي عند التعبير السليم في شيء من التوجيه الحكيم، أو التخطيط القويم، أو التفرس الوجيه. وفي عبارة: (حتى تهدأ قلوبهم) إشارة تنبه إلى أهمية الرؤيا فيما نحن فيه.

3 ـ مجال الاقتداء فيما ذكر يمكن حصره في الفقرة الرابعة والخامسة. وذلك بشيء من التهيئة الروحية والمجاهدات التربوية والجلسات التأملية، بعيداً عن صخب الحياة وكثرة الشواغل فيها، وبالتزامه سنن الهدى وآداب التلاوة وأحكام الإسلام عامة

في المكان والمتمكن عند التهيؤ للحفظ والتلقي والدرس القرآني ما أمكن ذلك، رَوْماً للاهتداء بحسن الاقتداء.

ومما يحسن الالتزام به في ضوء ما ذُكِرَ:

1 ـ التركيز على من علمنا حدوث حوادث له في حياته يمكن أن تكون قرائن على نُبوغٍ، أو تهيئة ربانية أو نحو ذلك مما يدركه المعلم المتفرس أو النبيه أو المدرك لهذا المعنى.

2 ـ الاهتمام بمن عُلِمَ عنه صدق الرؤيا لما ذكرناه من عدّ الشرع لها جزءاً من النبوة وإن كان قليلاً لأن (قليلها لا يقال له قليل).

3 ـ الالتزام بخلوة يومية ـ إن أمكن ـ تصفو فيها النفوس، ويهدأ فيها البال، ويراجع فيها المرء نفسه، ويستغفر ربه، ويسترحم مولاه، خاصة قبل التلقي، عسى ذلك أن يكون مسلك هداية يبارك الله فيه للمتلقي كما بارك لرسول الله ﷺ بهدايته لمثلها قبل أن ينزل عليه الوحي ويتحمل الأمانة الثقيلة.

4 ـ اجتناب أكل الثوم والبصل النيّئين ما أمكن ذلك خاصة قبل الدرس والتلقي، ومثلهما كل مؤذ مما له رائحة كريهة مما يلبس أو يحمل أو يؤكل.

5ـ اجتناب القراءة والتلقي في أماكن فيها صور، ولو كانت مما ترخص فيه بعض أهل العلم، لأن مسائل الخلاف من المشتبهات التي من اجتنبها وأخذ بالحيطة فيها فقد استبرأ لدينه وعرضه، أما ما اتفقت كلمة الأمة على تحريمه كالتماثيل والكلاب غير المأذون فيها، فلا رخصة فيها، ولا حجة لأحد في التساهل في اتخاذها وهي من أعظم أسباب الحرمان من التوفيق والعياذ بالله.

ومثل ما ذكر المنكرات بأنواعها؛ لأن الإنسان مطالب بإنكارها، فكيف يجتمع له فعل مستحب وتُقبل نفسه على مرغوب، وحوله المعاصي والمنكرات يجاهَرُ بها دون أن ينكرها ويصدع بالحق أمام أهلها.

هذا ولا يخفى أمر الاصطفاء في ما حصل لرسول الله ﷺ، كما لا يخفى أن مقام النبوة لا يدرك بالطلب، لكن ما دون ذلك تتعلق به همم الصالحين، وقد أدركه قلة من الصديقين، فعلى من رام هذا المقام العليّ أن يطلب ذلك من القوي جل شأنه، وأن يسلك لذلك السبيل السويّ.

المبحث الثاني: نصوص التلقي النبوي وما يستفاد منها بشكل عام.

نذكر هنا بعض النصوص والآثار النبوية التي عرضت لموضوع التلقي وكيفيته محاولين استخلاص بعض فوائدها بشكل عام، كما فعل من سبقنا من أهل العلم والتدبر.

أولاً: نصوص من السنة:

أ- حديث المدارسة: عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة(24) أن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل عليه السلام، وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة في رمضان، حتى ينسلخ، يعرض عليه النبي ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة.(25)

- وفي رواية: كان يلقاه كل سنة في رمضان.(26)
- وفي رواية: فيدارسه القرآن.(27)

ـ وفي رواية: أن جبريل عليه السلام كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة.(28)

ب ـ **حديث فاطمة رضي الله عنها**: روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: إنا كنا أزواجَ النبي ﷺ عنده جمعاً، لم تغادر منا واحدة. فأقبلت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ تمشي، ولا والله ما تخفى مشيتها من مشية رسول الله ﷺ فلما رآها رحب وقال: مرحباً بابنتي. ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله. ثُم سارَّها، فبكت بكاءً شديداً. فلما رأى حزنها سارَّها الثانية، فإذا هي تضحك. فقلت لها أنا من بين نسائه: خصّك رسول الله ﷺ بالسر من بيننا. ثم أنت تبكين، فلما قام رسول الله ﷺ سألتها: عمَّ سارَّك؟ قالت: ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سره. فلما توفي، قلت لها: عزمت عليك بما لي عليك من الحق لما أخبرتني. قالت: أما الآن، فنعم: فأخبرتني قالت: أما حين سارَّني في الأمر الأول، فإنه أخبرني أن جبريل عليه السلام كان يعارضه القرآن كل سنة مرة، " وإنه قد عارضني به العام مرتين. ولا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري؛ فإني نعم السلف لك ". قالت: فبكيت بكائي الذي رأيت. فلما رأى جزعي سارَّني الثانية. قال: "يا فاطمة، ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة ".(29)

ج ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنها: روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "كان يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه، وكان يعتكف كل عام عشراً، فاعتكف عشرين في العام الذي قبض فيه ".(30)

ثانياً: فوائد من نصوص التلقي: نلخص هنا جملة من اللفتات العلمية والتربوية والسلوكية

التي تستفاد من مجموع هذه النصوص مع ملاحظة أن بعضَها تكون النصوص المذكورة صريحة في الدلالة عليه، وبعضها يفهم منها بشيءٍ من النظر والتأمل.

1- كيفية التلقي النبوي للقرآن من جبريل ﷺ عن طريق المدارسة المستلزمة لحصولها بين طرفين. فقد ورد الوصف بصيغة التفاعل (يعارض، يدارس) الدالة - غالباً - على وقوع الفعل بين اثنين على الأقل. بل قد فصل القرآن بعض ما قد أجمل في هذه النصوص. وذلك في قوله تعالى: (إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه)، أي: اقرأ إذا فرغ جبريل في قراءته كما نقل ذلك ابن الجوزي عن المفسرين.(31)

ومنهج الاهتداء بالاقتداء: يقتضي أن يحاول المقرئ المعلّم إسماع القارئ المتعلّم ما سيحفظ أو يتلقى، ثم يسمع منه بعد ذلك، جمعاً بين محاسن وفوائد العرض والسماع إلا عند التعذر أو التعسّر، فيقتصر على المتيسّر.

2- التلقي مدارسةً يقتضي عدم الوقوف عند إتقان المخارج والصفات وحسن الأداء اللفظي فحسب؛ بل يتعدى ذلك إلى فهم المعاني والمدلولات مع التدبر والتفاعل مع الآيات ودراسة أحكامها وحِكَمِها وسبل العمل بها وإسقاطها على الوقائع المعيشة ونحو ذلك.

ومسلك الاهتداء بالاقتداء: يقتضي أن نحاول - عند مناسبة الظرف - أثناء التلقين أو السماع أن نجمع بين تصحيح الحروف والأداء، وتحسين الفهم والعمل بما يتلى، كأن يُلزم الطلاب بحفظ وسرد بعض الشروح المختصرة لغريب القرآن مع الجزء المتلقَّى، وأن يوقفوا على أهمِّ فوائد وأحكام النص المتلوِّ، ثُم يُوجَّهوا للعمل الصالح الذي تدعو إليه الآيات، ثُم يُحاسبوا على ذلك إن أمكن. وهكذا نتعلم العلم والعمل

معاً كما ورد عن الصحابة الكرام رضي الله عنه.(32)

3ـ في تصريح النصوص بوقوع المدارسة في رمضان، مع ما يصاحب ذلك من اعتكاف، إشارة واضحة إلى أهمية التهيئة النفسية والمجاهدات الروحية عند الإقبال على التلقي والتعليم. وأن لذلك أثره الكبير في رسوخ العلم والانتفاع به.

ومسلك الاهتداء بالاقتداء يقتضي أن نركز على التلقي والإقراء والقراءة في رمضان مع إحياء سنة الاعتكاف الذي يتلى فيه القرآن كثيراً، وتفرغ النفوس من شواغلها للإقبال عليه، ثم تتهيأ بالصيام والأذكار إلى حسن الفهم عن الله وحسن الاستقبال لنور الله: ﴿**قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ المائدة: 15ـ16.

وقد أشار بعضهم إلى أن تقديم الشيوخ لطلابهم في صلاة التراويح عملٌ أصله عرض سيد الأنام على جبريل عليه السلام في رمضان، فأعجبتني هذه اللفتة وقلت: هذا نوع من الاهتداء بالاقتداء.

4ـ ذَكَرَت رواية عند النسائي وأبي داود وابن حبان عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان فسافر عاماً فلم يعتكف. فلما كان العام المقبل اعتكف عشرين.(33)

وفيها إشارة إلى تأكّد المعارضة السنوية (لارتباط الاعتكاف بالقرآن) وضرورة قضائها عند فواتها لعارض. ويستفاد من ذلك ـ أيضاً ـ أن المداومة على مسلك من مسالك الإقراء مع القضاء عند الفوات لطارىء؛ لها بركتُها، وأثرها التربوي واضح

بجلاء؛ فإن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل. وفي ذلك نوع من **الاهتداء بحسن الاقتداء**.

5- في تصريح الروايات بأن المدارسة كانت ليلاً ما يفيد أن ذلك الوقت أنسب لحصول الكمال في الإحاطة بالدرس القرآني -كما قال المجيدي- ، وعلل ذلك بأن إتباعه بالنوم الذي يكون زمنه أقل ضرراً على الحفظ من زمن اليقظة، لعدم التعرض لخبرات جديدة يحصل بسببها النسيان ونحو ذلك مما نقله عن المختصين.

ومسلك **الاهتداء بالاقتداء** يقتضي اهتماماً بجعل الليل وعاءً للإقراء والمدارسة، على أن يتبع ذلك نوم تهدأ فيه النفوس وتثبت فيه العلوم، وهذا إذا لم يكن الليل كالنهار كما هو حال بعض البيئات، أو إذا تعذر ذلك، ومع ذلك فالبُكور منصوص على بركته، وتجارب المسلمين أطبقت على صلاحه ونفعه، غير أننا قد نستفيد هنا أهمية النوم بعد فترات الدرس المتعبة، في نجاح العملية التربوية.

6- في إقبال رسول الله ﷺ على القربات والطاعات - كما ورد أنه " كان أجود بالخير من الريح المرسلة "" - ما يفيد أن لها بركتها في تثبيت الفؤاد وسلامة التلقي وحسن المدارسة. فالطاعة السابقة لها بركتها، والطاعة المصاحبة لها دورها النافع، والطاعة اللاحقة لها أهميتها البالغة.

ومسلك **الاهتداء بالاقتداء** يقتضي توجيه الطلبة أو حملهم على أنواع من القربات والطاعات قبل المدارسة، وأثناءها، وبعدها، لما لذلك من أنوار تنعكس على قلب المتلقي كما لا يخفى.

7- تكرار المعارضة آخر الأمر مرتين، قد تكون لمراجعة ما سبق ضبطه وقد تكون

للتوثق من حسن التلقي وإتقان الأداء. وفي ذلك إشارة تربوية للمربين أن يضاعفوا الجهد لطلاب الصفوف المتقدمة وللموشك على إنهاء التلقي. وذلك بمراجعة ما استفادوه في سنواتهم السابقة أو ما تلقوه فيما سلف ضبطاً وتثبيتاً وتوثيقاً وروماً للاهتداء بحسن الاقتداء.

المبحث الثالث: كيفية التلقي النبوي للقرآن وقراءاته بشكل خاص.

نحاول هنا أن نحصر ما يستفاد من النصوص السابقة وغيرها مما له علاقة مباشرة بالإقراء والقراءة في شكل فقرات متسلسلة يعطينا تواليها تصوراً دقيقاً لعملية التلقي والإقراء بشكل خاص مما نأمل أن يكون له النفع الكبير في المسار التربوي والتخطيط التعليمي والدرس القرآني فنقول بتوفيق الله:

أولاً: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ هو إشعاره بإلـهية مصدر هذا القرآن، وعظمة المتكلم به وأنه حكيم خبير، وهذا الاستشعار يثمر ـ لا محالة ـ تعظيماً للمتكلم والكلام، يؤدي إلى مزيد من البذل والجهد في تحقيق اللفظ وضبط الأداء، وفهم المعاني، والحرص على الحفظ، كما يثمر ـ أيضاً ـ حصول التوفيق الرباني لتحقيق ذلك.

يفهم هذا المعنى من مثل قوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾العلق: 1. وهو أول ما بدئ به رسول الله ﷺ على الإطلاق.

ـ ومن مثل قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**﴾ (النمل: 6).

ـ ومن مثل قوله تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً** ﴾ (طه: 113)

ومنهج الاهتداء بالاقتداء: يقتضي تعليم الإيمان قبل القرآن كما هو مسلك السلف المصرح به في قول ابن عمر: لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدَنا يؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة فيتعلّم حلالها وحرامها وأوامرها وزواجرها وما ينبغي أن يقف عنده منه، ولقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمة، لا يدري ما آمره وما زاجره وما ينبغي أن يقف عنده ينثره نثر الدَّقل.(34)

وأهم قضايا الإيمان، الإيمان بالله وصفاته العُلَى التي تجعلنا نقدره حق قدره، ونستشعر عظمته وجلاله سبحانه، ويقتضي - أيضاً - تعليم آداب التلاوة المعينة على تعظيم الكلام والمتكلم، ومنها التذكير بحرمة القرآن وقداسته، وذكر سير المخبتين في تعاملهم مع القرآن وتعظيمهم لِمُنزِله سبحانه.

ثانياً: استماعه وإصغاؤه ﷺ عند تلاوة جبريل عليه السلام عملاً بقوله تعالى: ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ (القيامة: 18)

وقد بين ذلك سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما حين قال: "'فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك (أي: بعد نزول الآية المذكورة) إذا أتاه جبريل عليه السلام استمع "، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه).(35)

ومسلك الاهتداء بالاقتداء يقتضي التمسك بطريقة القراءة الأولى من الشيخ على الطلاب المبتدئين وهم يستمعون منتبهين لطريقة الأداء السليم والقراءة الصحيحة قبل الشروع في الحفظ لضمان السلامة من اللحن الذي تعسر معالجته بعد انتهاء عملية الحفظ.

- ويمكن أن يقال هنا إن في الإنصات ابتداءً من الفوائد الشيء الكثير. من

ذلك:

1 ـ أن فيه ترسيخاً وتذكيراً بالمصدرية الإلهية واستشعاراً للحصول على فوائدها المشار إليها فيما سبق(36).

2 ـ أن ذلك أقوى في الاستيعاب والحفظ والإتقان للفظ الآيات.

3 ـ أن ذلك أقوى في إدراك المعاني وحسن الفهم للكلام، وأسلم من الخلل أثناء سماع الكلام.

4 ـ أنه هو المسلك المنهجي الصحيح لتحقيق الإتيان بكل سبل التلقي بإتقان (السماع والعرض والمدارسة) وهو أولها وأولاها بالتقديم(37). **ثالثاً:** » ترديد القرآن بعد انتهاء جبريل عليه السلام من قراءته، ليطمئن قلبه بتحفظه، وهو صريح في الأمر القرآني، والوعد الإلهي ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ**﴾ (القيامة: 17)،

وقال الزمخشري في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً**﴾ (طه: 114): ... وإذا لقّنك جبريل عليه السلام ما يوحى إليك من القرآن فتأن عليه ريثما يسمعك ويفهمك، ثم أقبل عليه بالتحفظ بعد ذلك، ولا تكن قراءتك مساوقة لقراءته، ونحو قوله عزّ وجلّ: (لا تحرك به لسانك لتعجل به) (38) " (39).

والترديد يكون باللسان والفم لا بإمراره على القلب فقط كما فهم من مجموع النصوص منطوقاً ومفهوماً.

ومسلك **الاهتداء بالاقتداء** هنا واضح وصورته التطبيقية أن لا يبدأ الطالب في القراءة حتى ينهي الشيخ قراءة ما سيحفظ. فإذا أنهى وحصل الإصغاء فقد حصلت

درجة التلقي سماعاً، فليتبعها العرض على الشيخ، ثم تبدأ مرحلة التكرار. ولسنا بحاجة إلى التنبيه إلى أن العرض لا يكون إلا بالقراءة التي يتحرك فيها اللسان والشفتان ويجهر فيهما بالقراءة، أما الترداد والتكرار، فقد يستغنى فيهما عن الجهر دون التحريك، لأن القراءة دون تحريك اللسان ليست بقراءة.

رابعاً: القراءة بترتيل وترسُّل وتأنٍّ وتُؤدَة، استجابة لأمر الله تعالى: (ورتل القرآن ترتيلا) (المزمل: 4)، أي: "اقرأه مترسِّلاً بتبيين الحروف، وإشباع الحركات"، كما قال ابن حجر(40) .

وقد ورد عن ابن مسعود ما يوضح المراد وهو قوله: "لا تنثروه نثر الدَّقل، ولا تهذّوه هذَّ الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة".(41)

هذا، وقد حدثت حفصة أم المؤمنين عن قراءته ﷺ فقالت: كان يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها.

وحدثت أم سلمة رضي الله عنها بأن قراءته ﷺ كانت: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. يعني: كلمة كلمة.(43)

وههنا ملاحظة نحتاجها في منهج الاقتداء وهي: أن سورة المزمل التي ورد فيها الأمر بالترتيل من أوائل ما نزل من القرآن.

فمسلك الاهتداء بالاقتداء يقتضي أن نعوّد أنفُسَنا على الترتيل أثناء قراءتنا للقرآن، وأن نعوّد الطلاب على الحفظ مع الترتيل من أوائل مراحل التعلم، فنفتح للطالب المتلقي بعد السماع والعرض والترداد فرصاً للتلاوة مع الترتيل (أي: القراءة بتؤدة

وترسلٍ لتمس أنوار القرآن القلوب، وليحفظ القرآن مرتلاً من أول مراحل التعليم).

خامساً: القراءة مع التغنّي والترنُّم .نصت على ذلك نصوص صحيحة وصريحة كرواية أبي هريرة ﷺ في صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لم يأذن الله لشيء ما أَذِنَ للنبي أن يتغنى بالقرآن "[44]. وفي رواية للدارمي: "ما أذِن الله لشيء كأذَنِه للذي يتغنى بالقرآن يجهر به" .

ومسلك الاهتداء بالاقتداء أن نعلم الطلاب شيئاً مما يعينهم على التغني وحسن الأداء واختيار أفضل ختمات المتقنين من ذوي الصوت الحسن، وطلب محاكاتها في أول مراحل التعليم حتى يتدرب الطالب ويستقل بأدائه الخاص. ولا بأس بتخصيص أوقات مناسبة للسماع المباشر لذوي الأداء السليم والأصوات الحسنة كما تدعو إليه إشارات النصوص السابقة.

سادساً: ترسيخ الحفظ بقيام الليل خاصة، وذلك مسلك نبوي مهم فيما نحن فيه. وذِكرُ ربنا له أمراً صريحاً لرسوله في سورة المزمل. وتعليل ذلك بقوله: ﴿**إنا ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلا**﴾ (المزمل: 6) ليس أمراً اتفاقياً، بل إن في الليل سراً يجعل الحرص على الصلاة فيه وإحياءه بالقرآن أمراً بالغ الأهمية بحيث جُعل فرضاً على رسول الله ﷺ وأمراً مندوباً مؤكّداً على سائر الأمة كما هو معلوم.

ومسلك الاهتداء بالاقتداء يجعل إلزام المتربي بقيام الليل بالمحفوظ المتلقى أمراً لازماً، خاصة في المراحل الأولى، أما في حق النابغين الذي تعقد الأمة على أمثالهم الآمال، ويتوسم المقرئ فيهم الخير، ففي كل المراحل متى أمكن ذلك.

سابعاً : التعاهد السنوي، كما علمنا من المعارضة السنوية .

ومسلك **الاهتداء بالاقتداء** يجعل الاهتمام بالختم في رمضان في التراويح وفي غيرها من الاقتداء الحكيم والاتباع السليم، وقد أعجبني فكرة جديدة عُمل بها في مصر وهي ختم القرآن في المساجد ثلاث مرات في رمضان، مرة في الركعات الثمان الأولى، ومرة في تتمة الاثنتي عشرة ركعة ومرة في التهجد في العشر الأواخر، **ولعلها مسلك هدى لمن أراد حسن الاهتداء** ، والله أعلم .

خاتمة:

نخلص من خلال هذه التأملات في أمر التلقي النبوي للقرآن الكريم عن أمين الوحي جبريل عليه السلام إلى الجزم بأنه ليس كله من الخصوصيات التي لا مجال للاقتداء فيها، بل فيه- بحمد الله- مجال واسع لذلك، بينّا ما أمكن منه، وقد أكد مسلكُ رسول الله r مع صحابته الكرام، ومسلكُ الصحابة مع من تلقى عنهم كثيراً مما استلهمناه بتوفيق الله، مما يزيد القلب طمأنينة، ويؤكد صواب هذا المنحى .

المراجع

- القرآن الكريم برواية ورش من طريق الأزرق، مصحف مؤسسة البلاغ للدراسات والبحوث. 1431/2009م.
- تفسير الطبري: الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت-لبنان.

(5) ماعدا الرسالة التي أنجزها الأستاذ عبد السلام مقبل المجيدي وقدم لها وزكاها الشيخ عبد المجيد الزنداني والأستاذ الدكتور أحمد بن علي الإمام. والمطبوعة في مؤسسة الرسالة سنة 1421/2000م.

(6) منهم ابن حجر وابن حبان والسهيلي.

(7) أنس ابن مالك رضي الله عنه: هو أنس اين مالك بن النضر بن ضمضم البخاري الخزرجي الأنصاري أبو ثمامة أو أبو حمزة، صاحب رسول الله ﷺ وخادمه، روى عن رسول الله ﷺ نحو 2286 حديثاً، ولد بالمدينة وأسلم صغيراً وخدم رسول الله ﷺ إلى أن قبض ثم رحل إلى دمشق ثم إلى الى البصرة فمات فيها سنة93 هـ وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة رضي الله عنهم (الأعلام 25/2 ، وطبقات ابن سعد : 2/25).

(8) مسلم : كتاب الايمان، باب الإسراء برسول ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، رقم :261 .

(11) البخاري : كتاب بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، رقم :35 30.

(12) البخاري : كتاب بدء الوحي، باب : كيف بدء الوحي إلى رسول ﷺ ، رقم : 03.

(13) علقمة بن قيس رضي الله عنه: هو أبو شبل، علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك النخعي الهمداني، تابعي، كان فقيه العراق، يشبه ابن مسعود في هديه وسنته وفضله، ولد في حياة النبي ﷺ ، شهد صفين، وغزا خراسان، وأقام بخوارزم سنتين، وبمرو مدة، وسكن الكوفة، فتوفي فيها (الأعلام 248/4 ، تاريخ بعداد 296/12)

(14) ذكره ابن حجر في الفتح، وقال : رواه أبو نعيم في الدلائل بإسناد حسن، انظر :

- تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن القرآن الكريم، عبد السلام مقبل المجيدي، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، 1421/2000م.

- تهذيب السيرة النبوية لابن هشام: يوسف علي بديوي، الطبعة الثانية، دار اليمامة، سورية، 1425/2005م.

- زاد المسير في علم التفسير: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي ودار ابن حزم، بيروت – لبنان، 1423/2002م.

- صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، د. مصطفى البغا، مطبعة الهندي، 1401/1981م.

- فتح الباري: ابن حجر العسقلاني، الطبعة الأولى، بيت الأفكار الدولية، دون تاريخ.

الهوامش

(1) عائشة رضي الله عنها: هي أم عبد الله عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أفقه نساء المسلمين وأعلمهن بالدين والأدب ،تزوجها رسول الله في السنة الثانية للهجرة ، فكانت أحب نسائه إليه، وأكثرهن رواية للحديث وكان أكابر الصحابة يسألونها فتجيبهم ،توفيت في المدينة سنة 58هـ (الأعلام للزركلي 3/240).

(2) البخاري :كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ

(3)فتح الباري بشرح صحيح البخاري:ابن حجر العسقلاني،1/260

(4)سورة المزمل 1-8.

الفتح 8/719.

(15) خديجة رضي الله عنها :هي أم المؤمنين خديجة ينت خويلد، زوجة رسول الله ﷺ الأولى، ولدت بمكة ونشأت في بيت شرف ويسار، تزوجها رسول الله ﷺ وهي تكبره بخمس عشرة سنةفرزق منها بكل أولاده ماعدا إبراهيم، وهي أول من أسلم على الإطلاق، توفيت بمكة سنة 3 قبل الهجرة (الأعلام2/302، طبقات ابن سعد 8/7).

(16) أحمد: مسند بني هاشم، رقم: 2702.

(17) جابر: هو جابر بن سمرة بن جنادة السوائي، صحابي، كان حليف بني زهرة، له ولأبيه صحبة، نزل الكوفة وابتنى بها دارا، وتوفي في ولاية بشر على العراق، روى له البخاري ومسلم وغيرهما 146 حديثا (الاعلام 2/ 104، الاصابة 1/212).

(18) مسلم: كتاب الفضائل، باب: فضل نسب النبي ﷺ ةتسليم الحجر عليه قبل النبوة رقم 2277.

(19) كلام بحيرى: وهو قوله لميسرة عبد خديجة الذي رافق رسول الله ﷺ في رحلته إلى الشام قبل البعثة، "ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي"، لما نزلا تحت شجرة قرب ديره. انظر: (تهذيب سيرة ابن هشام ليوسف علي بديوي، ص 18).

(20) البخاري، كتاب الصلاة، باب : كراهية التّعري في الصلاة وغيرها، رقم : 357.

(21) البخاري ، كتاب بدءُ الوحي، باب: كيف بدءُ الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رقم : 03 .

(22) الحديث في المعجم الكبير للطبراني 2/452

(23) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب : إذا قال أحدكم آمين .....، رقم : 3053 .

(24) عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: هو ابن عتبة بن مسعود الهذلي، أبو عبد الله، مفتي المدينة واحد الفقهاء السبعة فيها، من أعلام لتابعين، ومؤدب عمر بن عبد العزيز، قال عنه ابن سعد: كان ثقة عالما فقيها، كثير الحديث والعلم بالشعر، ذهب بصره ثم مات بالمدينة سنة 98 هـ (الاعلام 4/195، تذكرة الحفاظ 1/74 صفة الصفوة 2/57).

(25) البخاري: كتاب الصوم باب: أجود ما كان النبي يكون في رمضان، رقم: 1803.

(26) مسلم : كتاب الفضائل، باب : كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، رقم : 5928.

(27) البخاري: كتاب بدء الوحي، باب: بدء الوحي، رقم 06.

(28) مسلم: كتاب فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ رقم : 2450.

(29) البخاري: كتاب الاستئذان، باب: من ناجى بين يدي الناس... رقم 5928.

(30) البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب: كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ، رقم 4712.

(31) زاد المسير، ص 1494.

(32) ورد ذلك في حديث ابن مسعود: كان الرجل منا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن (ذكره الطبري في تفسيره 1/35).

(33) مسند الامام أحمد ، كتاب : مسند الأنصار، باب : حديث المشايخ عن أبي بن كعب ، رقم :20770.

(34) سنن الترمذي، كتاب: الصوم باب: ما جاء في الاعتكاف إذا خرج منه رقم:

.803

(35) سنن أبي داود، كتاب الصوم، باب: الاعتكاف، رقم :2463.

و سنن ابن ماجة كتاب الصيام باب: ما جاء في الاعتكاف رقم : 1770.

(36) السنن الكبرى للبيهقي، باب البيان إنه إنما قيل يؤمهم أقرؤهم (3/120).

(37) صحيح البخاري كتاب بدء الوصي باب في بدء الوحي، رقم 05، صحيح مسلم كتاب الصلاة، باب "الاستماع للقراءة" رقم 448.

(38) والاهتداء بالاقتداء يمكن أن يكون هنا باستحضار الطالب اتصال سند مقرئه بالنبي ﷺ ثم بجبريل عليه السلام، ثم برب العزة والجلال سبحانه وتعالى.

(39) ويمكن الاقتداء هنا وفيما سبق (عند فقد المقرئ المتقن) بسماع أشرطة المتقنين من القراء المجودين قبل بدء عملية الحفظ والتلقي.

(40) الكشاف : 2/488 .

(41) تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم للمجيدي، ص 150.

(42) فتح الباري، باب قيام النبي ﷺ من الليل من نومه... 1/763.

(43) شرح ابن بطال (19/ 359).

(44) السنن الكبرى للبيهقي2/44، وأحمد بنحوه في باقي مسند الأنصار، رقم : 25371